آراء وأصداء

« عزيز علي المصري والحركة القوميّة العربيّة »

تعقيب على مقال الدكتور مجيد خدوري في العدد الماضي من « حوار »

المجال ضيق وصعب لمناقشة قصة علاقات عزيز علي المصري بالثورة العربية وبالشريف حسين وبالحركة القومية آنذاك بشكل عام ، حسبما رواها الاستاذ خدوري ، لاعتماده في مقاله ، في الدرجة الاولى ، على معلومات استقاها من المصري نفسه . انما هناك نقاط لم يثرها المقال او لم ترد فيه ، بالرغم من علاقتها المباشرة بالموضوع ، وبالرغم من انها تسلط على قصة العلاقات انواراً تكشف لنا عن حقيقة دور عزيز علي المصري بالحركة القومية، ذلك الدور الذي لا يجد الاستاذ خدوري مكاناً للبطولة فيه ، لا قبل الثورة ولا بعدها . ان هذه النقاط تشرح لماذا اعتبر المؤرخون العرب ، ولا يزالون ، عزيز علي المصري بطلاً قومياً عربياً ، بل رائد البطولة القومية العربية .

النقطة الاولى ان فكرة الوحدة العثمانية لم تكن ، بحد ذاتها ، تتعارض مع اهداف الحركة القومية ، قبل اعلان الحرب العالمية الاولى . قال بهذه الفكرة ، الى جانب عزيز علي المصري ، أغلبية القوميين العرب ، حتى اولئك الذين اشتركوا بمؤتمر باريس سنة ١٩١٣ ، وحتى اولئك الذين اعدمهم جمال باشا في سوريا ولبنان وفلسطين في ١٩١٦ ، وحتى اولئك الذين خاضوا غمار ثورة ١٩١٦ واشتركوا في عملياتها العسكرية . لا نستطيع ان نقول ان عزيزاً ما كان لينسجم مع الثورة ، او ما كان قومياً عربياً ، لمجرد ايمانه بالوحدة العثمانية ؛ لأنه لو صح القول لنزعنا صفة القومية عن أغلبية القوميين العرب الساحقة ، بما فيهم شهداء الحركة القومية ومفكروها وعسكريوها ومؤسسو جمعياتها واحزابها . الواقع ان التفكير القومي العربي نما بالتدريج ، في العشرين سنة الاولى من القرن ، وتطور من مرحلة الى اخرى : كان ، قبل الثورة ، يعتبر الاستقلال الذاتي واللامركزية الادارية والازدواجية في الحكم مع الاتراك الحل الأمثل للمشاكل العربية السياسية في ذلك الظرف . ولكن ظروفاً اخرى (منها نشوب الحرب وسوء تصرف الحزب التركي الحاكم) فرضت على الفكر القومي ان يبدل مطالبه السياسية ، فأخذ يرفض ، بعد عام ١٩١٦ ، ذلك الحل السابق ، ويستعيض عنه بأهداف اخرى أبعد وأرفع في مضمار الاستقلال القومي . اي ان عزيز المصري ، لما كان يجاهد بين عامي ١٩٠٨ و ١٩١٤ (في تركيا واليمن وبرقه) من اجل استقلال ذاتي، انما كان يعمل لخدمة القضية العربية حسب مفاهيم ذلك الوقت وحسب متطلبات تلك المرحلة من مراحل نمو القضية العربية وتطورها .

النقطة الثانية ان عزيز علي المصري لم يرفض ، ولم يعجز عن مجاراة التبدل، الذي حصل في الاهداف القومية عند نشوب الحرب (وهو المطالبة باستقلال تام بدل الاستقلال الجزئي) ، وليس في اعماله خلال الثورة ما يدل على انه رفض هذا التبدل او عجز عن مجاراته . ان ما رفضه عزيز المصري ، قبل اشتراكه في الثورة ثم عند انسحابه، هو التخلي عن مبدأ الاستقلال الذاتي (وعن اللامركزية الادارية والازدواجية في الحكم) دون الحصول على ضمانة او وعد باهداف احسن من المطالب الاولى ، اهداف تنص على الاستقلال التام والوحدة العربية (ولو في غربي آسيا ، على الاقل) . ادرك عزيز

علي المصري ما تجاهله بعض رفاقه في الحركة : سوء النية البريطانية وتناقض وعودها للعرب وغموضها ومطاطيتها . لذلك فضل ، آنياً ، ان يتمسك العرب بالاهداف السابقة، الجزئية بالنسبة الى مطلب الاستقلال التام ، على ان يفرطوا بها ويخسروها ويخسروا معها كل امل بالاستقلال ، جزئياً كان او شاملاً . شك عزيز المصري بامكان وصول العرب الى اهدافهم العليا التي وعدهم الانكليز بها — وهو ما حصل بالفعل ، عند نهاية الحرب ، لما تقاسم الانكليز والفرنسيون الارض العربية كلها ، خارج شبه الجزيرة، من العراق الى المغرب. ومع ان الكاتب يذكرنا بان الاحداث اثبتت خطأ ايمان عزيز المصري بقوة الالمان الحربية ، فانه لا يذكر ان الاحداث نفسها اثبتت صحة رأي عزيز بعدم الايمان بوفاء الانكليز . لقد وقف القوميون على مفترق طرق : طريق الامل الكبير بتحقيق تحسن صغير في اوضاعهم ، وطريق الامل الضئيل بتحقيق تحسن كبير في اوضاعهم . دعا المصري الى الطريق الاول، بعد ١٩١٤ ، ودعا اصدقاء الانكليز بين رجال الحركة القومية الى اتباع الطريق الثاني. وقد سارت الحركة وراء هؤلاء الرجال، ووقعت البلاد العربية، بسبب ذلك، في جب الانتداب والاحتلال عشرات من السنوات .

النقطة الثالثة ان حادثة انسحاب عزيز علي المصري من الثورة يمكن النظر اليها من زاوية اخرى غير تلك التي نظر الكاتب منها (وقد اعتبر الحادثة دليلاً على نفور عزيز علي المصري من مطلب الاستقلال التام) . الواقع ان عزيزاً انسحب (برضاه ، او ارغم على الانسحاب) من الميدان العسكري للثورة ولكنه لم ينسحب من الحركة الوطنية بشكل عام. لو كان انسحب من تلك الحركة انسحاباً نهائياً لجاز لنا الاعتقاد بتناقض مبادئه القومية مع مبادىء الحركة . الا انه انسحب من العمليات الحربية فحسب ، وبالاحرى من قيادة الشريف (ثم الملك) حسين وابنائه لتلك العمليات ، لعدم رضى عزيز ، وهو الوطني والعسكري ، لا عن سياسة الملك حسين القومية ولا عن كفاءاته العسكرية . اما من حيث كفاءات الحسين كزعيم للثورة القومية فان الكاتب يعترف ان الحسين كان يرفض الاستعانة بضباط عرب خبراء ووطنيين ، وانه لم يستعن بهم الا تحت ضغط الانكليز . ثم ان الحسين كان يرفض ان يشاركه احد بوضع المخططات وبالاتصالات والمباحثات السياسية . وظل يكتم اسرار مباحثاته مع الانكليز ، حتى عن ابنائه ، الى وفاته عام ١٩٣١ . وكان يرفض ان يعارضه او ان يحاسبه او ان يجادله انسان ، حتى ولو كان وزيراً او قائداً للجيش. وكان يصر ان تظل الوزارات وقيادة الجبهات بيد ابنائه واقاربه . هكذا كان الحسين خلال الثورة، وهكذا ظل الى ان طرد في ١٩٢٤ من الحجاز . لذلك ليس غريباً الا يجد رجل نظامي وحر التفكير ، كعزيز علي المصري ، مجالاً للعمل مع قيادة كهذه . اما عدم رضى عزيز عن نوايا الحسين السياسية فطبيعي بالنسبة الى رجل شك بنوايا الانكليز ورفض تصديق وعودهم تصديقاً اعمى ، كما فعل الحسين وابناؤه . ثم ان الحسين كان دخيلاً على الحركة الوطنية عند نشوب الثورة . لم ينضم اليها قط من قبل ، ولا انضم اليها اي من ابنائه (باستثناء فيصل الذي ادخل احد الاحزاب، ادخالاً صوريا ، سنة ١٩١٥ فقط) . بل كان الحسين وابناؤه قد خاضوا اكثر من معركة مع الاتراك ضد العرب ، عسكريا وسياسيا . هذا ما ادركه عزيز المصري ، وهو الذي كان من صميم الحركة الوطنية ، حتى وان لم يكن هو مؤسس القحطانية ، كما يعتقد الاستاذ خدوري ، وان لم يكن برنامج حزبه — العهد — قد طالب بالاستقلال التام عند تأسيسه . فان عزيزاً حقق ، على الاقل، استقلالاً داخليا لليمن هو الاول من نوعه ، وحمى شعبه من غضب الاتراك . وحاول ، على الاقل ، حماية عروبة برقه . ووقف ، على الاقل ، في وجه بطل التتريك ، انور باشا ، وكاد يفقد حياته عقابا.

وعلى الاقل ، ايضاً ، لم ينخدع بأحابيل السياسة البريطانية وانتبه الى الحفرة التي حفرها مكماهون وستورز وكتشنر للعرب ووقع الحسين فيها بمجرد ان وعد بالملك والخلافة . ولأن الحسين كان بعيداً عن الحركة الوطنية وغريباً عنها حتى عام ١٩١٦ ، فضل عزيز المصري ان يعرفه عن كثب قبل ان يقبل بزعامته . ولما عرفه عن كثب ورأى فيه ما رآه مما لم ينسجم مع زعامة الحركة التي آمن بها ، تخلى عنه (لا عن الحركة) ، وانسحب الى مصر مرتاح الضمير : فضل ألا يجاهد على ان يشترك في جهاد شك في زعامته وفي مخططاته الاجنبية . ولم يكن عزيز علي المصري العنصر القومي الوحيد الذي خرج على الحسين قبل نهاية الثورة : فقد فعل مثله العشرات (بينهم الفاروقي واسعد داغر ورشيد رضا ورفيق العظم) .

النقطة الرابعة ان فكرة اتصال عزيز المصري أو غيره من القوميين العرب بالألمان والأتراك في ١٩١٦ على حساب الحسين يجب ألا تفهم كخيانة أو غدر للقضية القومية . فان ما حاول عزيز المصري ان يفعله ، ان صحت رواية الاستاذ خدوري ، قد فعله ، وراء ظهر الحسين ، اشخاص آخرون كانوا أقرب اليه من عزيز المصري ، وعلى رأسهم ابنه فيصل نفسه الذي أجرى اكثر من اتصال مع الاتراك خلال الثورة . بل ان الانكليز كانوا ، من بعد فشل محاولة عزيز المصري بأشهر قليلة ، يتصلون بالاتراك ، بالسر طبعاً ، في سويسرا ، في محاولة للاتفاق معهم على حساب حليفي الطرفين ، الالمان والعرب .

يقودنا هذا الى النقطة الخامسة والاخيرة ، عن حقيقة دور عزيز المصري بالالمان عند بدء الحرب الثانية . لقد اكتفى الكاتب ، عند كلامه عن وزارة علي ماهر (باشا) التي عينت عزيزاً رئيساً لأركان الحرب ، بوصفها بأنها وزارة ضد الانكليز . والواقع ان عداءها للانكليز ، ورغبة بعض أركانها بالاتصال بالمحور ، انما كانا رد فعل لموقف الانكليز العدائي من مجموعة الحركات الوطنية التي انتعشت في البلاد العربية في السنوات الاخيرة من الثلاثينات والاولى من الاربعينات . وقد بلغ الموقف البريطاني العدائي ذروته باقالة الوزارة واعتقال بعض القوميين العرب من أركانها ، وباحتلال العراق وسوريا ولبنان احتلالاً عسكرياً ، وباعدام العشرات من الشبان الوطنيين في الكويت والبحرين . لقد كانت تلك الاجراءات ، ومن بينها اعتقال عزيز علي المصري ، تمهيداً لضرب الحركة الوطنية التي اتخذت لنفسها أهدافا استقلالية (كما كانت قد فعلت في الحرب الاولى) والاستعاضة عنها بوعود مطاطة ، استقلالية ووحدوية ، تماما كما حصل في الحرب الاولى ، في شكل مؤسسة الجامعة العربية التي عمل الانكليز على تأسيسها . فمثلما أزيح عزيز علي المصري عن قيادة الثورة القومية سنة ١٩١٦ لاستغلال النضال العربي لمصالح غير عربية ، أزيح سنة ١٩٤١ عن رئاسة أركان حرب الجيش المصري لاستغلال النضال العربي للمصالح غير العربية نفسها . وكانت التهمة في الحالتين واحدة : التآمر مع الالمان .

لذلك ليس غريبا ان تكون حركة الضباط الاحرار ، التي يقول الكاتب انها اعتبرت عزيز علي المصري أبا روحيا لها ، اول مؤسسة رسمية مصرية تعتبر مصر جزءاً من الوطن العربي وتسعى للوحدة وللاستقلال العربيين ، وهو الهدف الذي عمل عزيز المصري له . وليس غريبا ، بالتالي ، ان تظل فكرة اصالة جهاد عزيز علي المصري حية في أذهان الكتاب العرب حتى اليوم : وهي ، على كل حال ، حقيقة واقعة وليست اسطورة . فان ماضي الرجل البعيد ، مثل ماضيه القريب ، يؤكدان على صحتها .

أنيس صايغ